العرب
الإثنين 2021/05/31
السنة 43 العدد 12075

التهدئة الطويلة في غزة تتطلب قدراً من الحكمة

عدلي صادق
كاتب وسياسي
فلسطيني

تدور الآن رحىٰ اتصالات سياسية إقليمية، بهدف احتواء الحالة في غزة، لاسيما بمعطياتها الجديدة؛ سلاحاً فلسطينياً فوجئ الإقليم بحجمه، ودماراً فلسطينياً فوجئ العالم بوحشيته. وبدا أن كل هذه الاتصالات تتحاشىٰ الخوض في الحل السياسي، وبالتالي يتضح أن أقصىٰ ما يمكن أن يؤخذ من إسرائيل، في أزمتها السياسية الداخلية الراهنة، لا يتجاوز التفاهم علىٰ هدنة طويلة، مع اتفاق علىٰ تبادل أسرى مع حماس.

الأمر المهم الذي يُلاحظ هو أن الضاغطين يحاولون إقناع حماس بأن تنحو إلىٰ استثمار إنجازها علىٰ مستوى الأداء العسكري، بطريقة أخرى غير الاستمرار في امتداح الذات. فما جرى في إطار معادلة القصف بالقصف، لا يسمح بالمبالغة في وصفه، طالما أن القصف الإسرائيلي أوقع خسائر جسيمة لم يوقع القصف الفلسطيني 5 في المئة منها، مع التسليم بأن هذا الأخير، كان كافياً لجلب الثناء، بحكم فائض القوة لدى الطرف الآخر، وادعائه بأنه مُحصّن ولا يمكن أن يُمس.

هناك تركيز، في رحىٰ الاتصالات، علىٰ رئيس حركة حماس إسماعيل هنية أكثر من سواه. وهنا ترتسم ملاحظتان: الأولىٰ، تتعلق بمستجدات العلاقة بين مصر وقطر، لاسيما وأن بعض أصداء هذه العلاقة، أدت إلىٰ أن يرسل هنية، رسالة امتداح للدور المصري، بلغة لم تكن متاحة له قبلئذ، وبخاصة تلك التحية التي وجهها للرئيس المصري عبدالفتاح السيسي. فهكذا تحية كانت علىٰ رأس التابوهات القطرية ـ التركية قبل انفراج العلاقات. وليست قيادة حماس غافلة عن كون الدور المصري قد تأسس علىٰ تفاهم مصري – أميركي علىٰ تصفير مشكلة غزة، علىٰ المستوى العنفي، دون الاقتراب من فكرة حل النزاع برمّته.

وربما لن يمر وقت طويل حتىٰ يصبح الطرف الأميركي نفسه معنياً بشكل من الاتصال مع حماس، في حال أظهرت هذه الحركة استعدادها لأن تتعاطىٰ السياسة بمحدداتها الإقليمية والدولية. ويصح الافتراض هنا، أن القطريين تحديداً، وبتأييد من تركيا ومصر، معنيون بالتوصل إلىٰ اتفاق تهدئة وهدنة طويلة، لذا كانوا حريصين علىٰ تذكير الأطراف الإقليمية، بجدارتهم في لعب هذا الدور. فقد تحدث وزير خارجية قطر الشيخ محمد بن عبد الرحمن آل ثاني عن دور واتصالات قطرية لم تنقطع مع إسرائيل، وكذلك مع حماس، لاحتواء التصعيد.

ربما لن يمر وقت طويل حتى يصبح الطرف الأميركي نفسه معنياً بشكل من الاتصال مع حركة حماس في حال أظهرت هذه الحركة استعدادها لأن تتعاطى السياسة بمحدداتها الإقليمية والدولية

رئيس المكتب السياسي لحماس وجميع قادتها في الخارج، موجودون في كنف الدوحة وأنقرة. والعاصمتان تحتفظان بعلاقات راسخة ـ وليس بالضرورة حميمة ـ مع الإسرائيليين، وبالتالي يظل خيار حماس في الخارج، مُحددا ولا يتطابق مع رواية قادة الحركة نفسها في غزة، وهو يلتزم الخطاب الأيديولوجي الذي جعل المقاومة سياسة وحيدة. ففي الدوحة وأنقرة يجري تفكيك الخطاب، وهذا أمر لا يلام عليه الحمساويون، لأن من يغادر غزة، ويرى العالم، ويتتبع السياسات، يدرك أن خطاب الوعود القصوى، أصبح محبطاً أكثر من خطاب الرضوخ السياسي، لتعارض الأول مع منطق التفكير وأخذ الوقائع وموازين القوة ومصالح المجتمع الفلسطيني في كيفيات الحياة في الأراضي المحتلة والمحاصرة بعين الاعتبار.

أغلب الظن أن جواب قادة حماس في الخارج، علىٰ ما يُقال لهم من صحيح السياسة، هو أن قيادة العمل العسكري في غزة ترفض الحديث الذي يتجاوز مسألتي الهدنة والمطالب التفصيلية للحياة في غزة. وهذا الذي جعل موضوع تصريحاتهم مشكلة بالنسبة إلىٰ الوسطاء، إن لم يكن أيضاً، مشكلة لقيادة حماس في الخارج. فلا تزال بعض التصريحات الارتجالية تضر بالقضية الفلسطينية وبثوابت الخطاب السياسي الوطني، كالقول بلسان قائد حماس في غزة يحيىٰ السنوار إن لديه أو لدى حركة المقاومة عشرة آلاف استشهادي من سكان أراضي 1948.

مثل هذه التصريحات تنعكس ضرراً مؤكداً علىٰ المواطنين العرب الفلسطينيين في إسرائيل، وهم يناضلون سلمياً من أجل المساواة، ويطمحون إلىٰ دولة لكل مواطنيها ويناضلون ضد منطق الفصل العنصري. فالغول الأصولي الاستيطاني المتطرف هو الذي يستفيد من هكذا تصريحات لتبرير انقضاضه علىٰ المواطنين العرب الفلسطينيين. إن هذا هو تحديداً، الأمر الذي جعل قيادة حماس العسكرية في غزة، هدفاً للأطراف الساعية إلىٰ احتواء وضع غزة، لكي لا تظل "عنصر إثارة" في الإقليم. فمن المعتاد في الأحزاب أن يكون القرار عند قيادتها العامة، فلا يضطر الوسطاء إلىٰ الحوار مع قيادة فرعية.

عندما نُجزم أن سقف كل هذه الاتصالات، في رحاها الدائر، هو التهدئة طويلة الأمد، ومحاولة تثبيتها باتفاق علىٰ تبادل الأسرى؛ فإن السبب هو عدم جاهزية إسرائيل للخوض في مشروع تسوية، وافتقاد نظام محمود عباس للجدارة في أن يكون طرفاً. ذلك معناه أن الطرفين يمران بمرحلة عجز سياسي ودستوري، وليس لديهما زعماء قادرون علىٰ اتخاذ قرارات تاريخية، وبالتالي لا يستطيع الوسطاء التغاضي عن هذه الحقيقة. ففي إسرائيل، هناك جنرالات طامحون إلىٰ أدوار سياسية، ورهانهم الأساس علىٰ حركة الاستيطان وجمهورها، وهذه لا علاقة لها بالسياسة.

أما الرجل الذي حاول أن يكرّس نفسه كزعيم تاريخي وأحد "ملوك إسرائيل" فقد انتقل منذ سنوات إلىٰ حال الذعر الذي اضطره إلىٰ دخول لعبة شد الحبل مع القضاء، لكي يؤجل محاكمته بتهم فساد. وعلىٰ الجانب الفلسطيني، هناك رجل يزحف إلىٰ سن التسعين، لم يستطع حتىٰ القيام بتدابير بسيطة وشكلية متاحة، كأن يدعو أعضاء من اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية ـ علىٰ هزالها ـ لحضور جلسة التصوير أثناء زيارات مسؤولين دوليين، ولا حتىٰ أن يترك لوزير خارجيته كل مهمّاته كوزير للخارجية. فهو يكتفي أثناء الجلسة مع ضيف أجنبي، بحضور عنصر الاتصال مع الإسرائيليين وعناصر من السكرتاريا. فما بالنا عندما يتعلق الأمر ببنية النظام السياسي الذي يترأسه، وحاجته الماسة إلىٰ المؤسسات.

موضوع التصريحات الحمساوية في غزة يؤرق الوسطاء، ويصعّب عليهم المهمة. ربما البعض من حماس يعتقد خطأ، أن أموال إعادة الإعمار سوف تتدفق، قبل أن يتأكد المساهمون في هذه الإعادة، بأن ما سوف يُبنىٰ، لن يدمر مرة أخرى. وهذا الذي يجعل مسألة إعادة الإعمار سياسية بامتياز، ويجعل حماس مطالبة من الوسطاء والمانحين بأن تختار أحد الأمرين: إما بقاء الركام وتثبيت الخسارة علىٰ حساب أصحاب الأملاك والتسبب في حجب المساعدات عن أسر الضحايا، أو المرونة في التعاطي مع مقترحات الهدنة الطويلة التي يحتاجها الشعب الفلسطيني، والكف عن التصريحات المزلزلة، إن لم يكن بسبب حاجة غزة إلىٰ التقاط الأنفاس واستعادة الدورة الاقتصادية الغائبة منذ سنوات طويلة، فليكن لإنقاذ القطاع من تداعيات وظواهر مرضية لم يعرفها المجتمع الفلسطيني من قبل.

بين خطاب الزلازل مع تضخيم القدرات العسكرية، وخطاب المهزومين في دواخلهم، الذين يذمّون المقاومة انطلاقا من حقائق الثمن الفادح الذي دفعه الناس، قاصدين رفض مبدأ حق الدفاع عن النفس؛ أصبح المرتجىٰ بين الخيارين، قدر من الحكمة، لأن المسألة لا تتعلق بالمقاومة وحدها، وإنما بشعب وقضية ونزاع طويل الأمد، من أجل شيء من العدالة والحقوق الفلسطينية.

عودة أميركية لإدارة المفاوضات كعملية سياسية

محمد أبوالفضل
كاتب مصري

وجدت الولايات المتحدة في نتائج المواجهة العسكرية بين إسرائيل والمقاومة الفلسطينية فرصة جيدة للعودة إلىٰ إدارة عملية السلام التي تجمدت السنوات الماضية بعد اندلاع صراعات ونزاعات وتوترات إقليمية عدة، وتيقنت أن حضورها المباشر وإدارتها لمشروع التسوية بين الإسرائيليين والفلسطينيين كعملية سياسية قادر علىٰ كبح الخيارات البديلة، ويمكنه تقويض دور القوى المنافسة في المنطقة.

حرص رؤساء الولايات المتحدة المتعاقبين علىٰ إدارة الصراع العربي– الإسرائيلي أكثر من حرصهم علىٰ إيجاد تسوية نهائية له، وتمكن غالبيتهم من وضع الكثير من الأوراق في أياديهم، وضبطوا جوانب مهمة من الأوضاع بالصورة التي تمنع اندلاع حرب كبيرة في المنطقة لا يستطيعون السيطرة عليها.

التخلي عن التعاطي مع الصراع كعملية سياسية حوّل الإدارة الأميركية إلى رقم هامشي تضر تبعاته بمصالح إسرائيل ويمنح تفوقا لمحور المقاومة الذي تقوده إيران بالتعاون مع حركتي حماس والجهاد الإسلامي

ظهر الخلل في هذه المعادلة خلال عهد الرئيس السابق دونالد ترامب، حيث أراد القفز علىٰ مبدأ إدارة العملية السياسية الذي كرّسه سابقوه وقدم حلا مبتسرا عبر "صفقة القرن" تصور أنه سيكون مخرجا حاسما للصراع، وخلت إدارة الصفقة من الحنكة وكأنها طبخة غير طازجة يراد من الفلسطينيين والعرب تجرعها بكل مرارتها.

أدركت واشنطن الآن أن التخلي عن التعاطي مع الصراع كعملية سياسية حوّل الإدارة الأميركية إلىٰ رقم هامشي، تضر تبعاته بمصالح إسرائيل، ويمنح تفوقا لمحور المقاومة الذي تقوده إيران بالتعاون مع حركتي حماس والجهاد الإسلامي في قطاع غزة، ما أضر بالمحور المعتدل بقيادة مصر ومعها السلطة الفلسطينية.

فتح توقف عملية السلام، إدارة ومعنىٰ وفحوى، الطريق أمام المناورة بالحل العسكري والتلويح به من وقت إلىٰ آخر، وأدى فقدان البوصلة الأميركية إلىٰ خروج واشنطن تدريجيا من المشهد الإقليمي، إلىٰ أن وقعت حرب غزة الأخيرة ومعها استشعر الرئيس جو بايدن حجم الخسائر الفادحة لغياب الأفق السياسي وأن استمرار ذلك يقود إلىٰ تغيير كبير في التوازنات، ومن الضروري العودة إلىٰ العملية السياسية.

وفرت الإدارة الأميركية أجواء مواتية أمام القاهرة للجم الحرب، ونجحت في وقف إطلاق النار، وبدأت مرحلة جديدة من التفاهمات بين الطرفين قاعدتها الرئيسية عودة عملية السلام إلىٰ مسارها الصحيح، والعمل علىٰ توفير المساعدات الدولية اللازمة لإعادة إعمار غزة، وتمكين السلطة الفلسطينية من ممارسة دورها السياسي.

علىٰ أرض الواقع من الصعوبة تحقيق الأمنيات الأميركية التي تدغدغ مشاعر البعض من الفلسطينيين والعرب بشأن حل الدولتين، فلا إسرائيل ستوافق علىٰ تطبيق الفكرة بعد أن استحوذت علىٰ جزء كبير من الأراضي المحتلة وأقامت مستوطنات عديدة، وتضخمت أدوار المتطرفين، ولا حماس كقوة كبيرة مهيمنة علىٰ القطاع سوف تقبل الدخول في مفاوضات حول حل لا يلبّي طموحاتها.

تريد الولايات المتحدة العودة إلىٰ تدشين محادثات بين إسرائيل والفلسطينيين والإيحاء أن هناك حركة في المنطقة واهتماما ظاهرا بالقضية الفلسطينية بعد أن تصدرت الواجهة الإقليمية، واستردت قدرا من عافيتها، بصرف النظر عن النتيجة التي يمكن أن تصل إليها أيّ مفاوضات، فالمهم أن يتولد شعور بوجود عملية سياسية مستمرة.

جربت واشنطن هذا الاتجاه علىٰ مدار نحو عقدين، فبعد التوقيع علىٰ اتفاق أوسلو عام 1993، دخلت المفاوضات بين إسرائيل والفلسطينيين محطات مختلفة، جميعها لم تسفر عن تقدم ملموس، لكن كان التعلق بالأمل يوقف استمرار التصعيد، وبعد توقف المفاوضات تعثرت العملية السياسية ذاتها وأخذت جدران السلطة الوطنية تتآكل.

لعب التقاعس الأميركي والتراخي الدولي والمراوغة الإسرائيلية دورا محوريا في هذه النتيجة التي ازدادت قتامة مع اتساع الهوة في المواقف العربية، وغلبة الانشغالات الداخلية علىٰ القومية، حتىٰ استيقظت واشنطن أمام مشهد يعيد الصراع إلىٰ صورته الصراعية المحتدمة، ويعلو ضجيج السلاح علىٰ صخب المحادثات، ما يعني خسارة نحو أربعة عقود بذلت خلالها الولايات المتحدة جهودا مضنية لتغيير شكل الصراع.

دقت حرب غزة الأخيرة جرس الإنذار لتنتبه الإدارة الأميركية إلىٰ مكامن الخطر في غياب العملية السياسية، وخسارتها لإدارتها، وبدأت تظهر تحركات من فرنسا وألمانيا بالتعاون مع مصر والأردن لإطلاق مفاوضات بين إسرائيل والفلسطينيين، ما يؤثّر علىٰ مركزية دور واشنطن في مسار امتلكت في بعض الأوقات كل أوراقه المؤثرة.

قد تضخ العودة الأميركية للانخراط في القضية الفلسطينية دماء في شرايين المفاوضات، لكنها غير مضمونة أن تقود إلىٰ حل منتج لها، لأن العودة لم يتم التمهيد لها وتبدو ولادتها صعبة، وخرجت من رحم أحداث غزة ودروسها وأهمها أن المقاومة الفلسطينية نجحت في تطوير آلتها العسكرية بطريقة تمثل إزعاجا لإسرائيل.

إذا مضت عملية التطوير في طريقها بضع سنوات أخرى يمكن أن تمثل هاجسا أكبر لإسرائيل، ففي ظل الانهيار الذي لحق بمشروع التسوية الذي تبنّته السلطة الفلسطينية والإحباط الذي أصاب مؤيديه بفعل التعنت الإسرائيلي استرد المشروع المقابل (المقاومة) زخمه، واستطاع أن يجذب انتباه فئات كانت من مؤيدي المشروع الأول.

يفسّر هذا التغير أحد أسرار الليونة التي بدت عليها إسرائيل في التجاوب مع وقف إطلاق النار دون شروط، ويفسر أيضا أسباب تأييد واشنطن لتحركات القاهرة الرامية لإعادة المفاوضات، ويمكن أيضا فهم مرونة حماس في سياق ما لحق من تغيرات في مواقف بعض حلفائها.

ربما تكون الأهداف النهائية لدى كل طرف مختلفة، غير أنها تصب في اتجاه فتح المجال أمام التسوية وتمكين الولايات المتحدة من إداراتها كعملية سياسية، وهي الصيغة التي تحقق من ورائها كل الأطراف جانبا من أغراضها المرحلية.

يمكن لإسرائيل أن تلتقط أنفاسها لتتهيأ للتعامل مع الفترة المقبلة الملتبسة، وواشنطن قد تستطيع استعادة لياقتها وتفاعلها مع القضية الفلسطينية بعد أن تأكدت من خطورة تجاهلها سياسيا، ومصر تسترد عافيتها الإقليمية، وحماس والسلطة الوطنية تتمكنان من إعادة التموضع بما يتماشىٰ مع المستجدات وتعقيداتها.

لن تفضي هذه النوعية من الحسابات إلىٰ تحريك قطار المفاوضات للأمام خطوة واحدة، لأن إدارة العملية السياسية دون أمل حقيقي سيكون كفيلا بعودتها للجمود مرة أخرى، خاصة أن خبرة التعامل الفلسطيني مع إسرائيل وبرعاية الولايات المتحدة أتاحت خبرة تقلل من جدوى المفاوضات لأجل المفاوضات.

من هنا يأتي التباين بين إدارة العملية السياسية في أوقات سابقة وبين إدارتها حاليا، بما يفرض علىٰ واشنطن أن تقدم شيئا ملموسا للفلسطينيين الذين يشعرون اليوم، علىٰ الرغم من تعاظم المعاناة، أنهم قادرون علىٰ إرباك إسرائيل، حيث اكتسبت قضيتهم تعاطفا دوليا يمكن أن يضع إدارة العملية السياسية من جانب واشنطن تحت المجهر.

العرب

أول صحيفة عربية صدرت في لندن
1977 أسسها
أحمد الصالحين الهوني

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير المسؤول
د. هيثم الزبيدي

رئيس التحرير والمدير العام
محمد أحمد الهوني

مدراء التحرير
مختار الدبابي
كرم نعمة
منى المحروقي

مدير النشر
علي قاسم

المدير الفني
سعيدة اليعقوبي

تصدر عن
Al-Arab Publishing House
المكتب الرئيسي (لندن)
The Quadrant
177 – 179 Hammersmith Road
London, W6 8BS, UK
Tel: (+44) 20 7602 3999
Fax: (+44) 20 7602 8778

للإعلان
Advertising Department
Tel: +44 20 8742 9262
ads@alarab.co.uk

www.alarab.co.uk
editor@alarab.co.uk